الاستجابة لله

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[آل عمران:102].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[النساء:1].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[الأحزاب:70-71].

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة في الله!

يقول الله سبحانه وتعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[الملك:1-2]، يمجد سبحانه وتعالى نفسه، ويعظّم نفسه، ويصف نفسه بالبركة، ولا شك أنه خالق البركة، يُبارك في أوليائه وأصفيائه وأنبياءه، ويبارك في الصالحين من عباده، ويبارك في الأعمال التي شرعها لهم، ويجعل فيها خيراً كثيراً، ويبارك في وقت المسلم وحياته.

ويمدح سبحانه وتعالى نفسَه بأنه المتصرف في الأمور، وبيده مقاليد الأمور، يُعز من يشاء، ويُذل من يشاء، ويحيي من يشاء، ويُميت من يشاء، ويغني من يشاء، ويُفقر من يشاء، سبحانه وتعالى، ويشفي من يشاء ويُمرض من يشاء، جل جلاله وتباركت أسمائه، وهو على كل شيء قدير.

وقفة مع قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ}[الملك:2]:

نقف معكم – أيها الإخوة – عند قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ}[الملك:2]:

فإن الناس يعرفون معنى واحداً للحياة، ومعنى واحداً للموت؛ فأما الحياة فيعرفون معنى واحد وهو المعنى المشترك بينهم وبين الحيوانات، وهو: أن يكون الإنسان صحيحاً متحركاً ببدنه، لا يعاني من أمراض أو أسقام، هذه هي الحياة التي يدركها كثير من الناس! وأما الموت فهو: انقطاع هذه الحياة، ولا شك أن هذا معنى للحياة ومعنى للموت ولكن ليس هو المعنى الوحيد لهما، والمسلم بثقافته الربانية وبتعلمه لكتاب ربه وسنة نبيه يدرك معنى آخر للحياة، ومعنى آخر للموت.

أما المعنى الآخر للحياة فهو: حياة القلب..حياة الروح..حياة الإيمان..حياة المعرفة..حياة البصيرة..حياة العبادة..حياة الخشوع..حياة التقوى..حياة الإيمان الكامل الشامل! إنها حياة لا يعرفها الكفار، ولا يعرفها الملحدون، ولا يعرفها الفاسدون الفاسقون المجرمون الظالمون؛ الذين قد ماتت قلوبهم وماتت أرواحهم بسبب جرائمهم وذنوبهم، إننا نريد أن نتعرف على

هذه الحياة التي ذُكرتْ في كتاب الله وفي سنة رسول الله، والتي هي حياة أولياء الله، وليست حياة الدواب والأنعام! وإنما هي حياة المؤمنين الذين يملكون روحاً شفافة ربانية، يقول الله عز وجل: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}[الحجر:29]، ويقول سبحانه وتعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}[الأنعام:122]، إنها حياة العلم والمعرفة..حياة الإيمان والتقوى، هذه الحياة اليوم هي التي لا يعرفها أكثر الناس، ولا يعرفها إلا أهل الإيمان الصحيح، وأهل الاعتقاد السليم، وأهل العلم النافع، وأهل الاتباع للقرآن، وأهل الاتباع للسنة، الذين يعملون بتعاليمهما، ويعتقدون عقائدهما، ويتخلقون بأخلاقهما؛ فيكسبهم ذلك حياةً وروحاً وإيماناً، يقول سبحانه وتعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[الشورى:52]، وكذلك أوحينا إليك روحاً، إذاً: هي روح غير الروح التي يملكها الكافر..روح غير الروح التي تعرفها الدواب والأنعام..روح غير الروح التي يعرفها المفسدون أو الظالمون أو المجرمون، وإنما هي روح ربانية، روح تزكي العقل، وتزكي الروح، روح ربانية من عند الله سبحانه وتعالى، {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا}[الشورى:52].

وقال تعالى: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ}[غافر:15]، روح من أمر الله، روح من وحي الله {عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ}[غافر:15]، {تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا}[القدر:4].

أيها الإخوة! كم نصيبنا من هذه الروح؟ كم نمتلك من هذه الروح؟ كم نسبة ما في عقولنا ونفوسنا من هذه الروح؟

ويقول سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}[الأنفال:24]، (استجيبوا لله) ومعلوم أن الاستجابة هذه التي تقع لله تملك الحياة العامة التي يوجه إلى صاحبها الخطاب، ولكن عندما تستجيب لله وللرسول يمنحك حياة أخرى، (استجيبوا) هذا خطاب موجه للأحياء، ولكن الحياة التي هي ثمرة هذه الاستجابة هي حياة خاصة، ينتفع بسببها بالقرآن، وينتفع بالسنة، وينتفع بالعلم، وينتفع بالمواعظ، وينتفع بالصلاة والصيام والزكاة والحج، ينتفع بالأعمال الصالحة؛ كما قال تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}[الأنفال:24].

إذاً هذه حياة أخرى، حياة {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}[النحل:97]، أما الحياة العامة فهي التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}[البقرة:96] أي: ولتجدن اليهود أحرص الناس على الحياة؛ أيَّ حياة كانت! ولو كان فيها ذلة أو مَهانة، وصفهم بذلك ربنا تبارك وتعالى، وللأسف الشديد أصبح كثير من المسلمين موصوفاً بهذه الحياة! يرضى بالذلة والهوان، بينما اليهود يرفضون ويأبون اليوم أن يعيشوا تحت ذل أحد، أما المسلمون وللأسف الشديد فيعيشون تحت سيطرة النصارى الأمريكان والغرب، يتحكمون في قرارهم، ويتحكمون في أنظمتهم، ويتحكمون في عقولهم، ويتحكمون في اقتصادهم وثقافتهم، وآدابهم وأخلاقهم! إن لله وإنا إليه راجعون!

يقول الله تعالى عن اليهود: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}[البقرة:96] (حياة) نكرة، أيَّ حياة كانت، أما أهل الإسلام وأهل الإيمان الصحيح فإنهم يرفضون الذلة والهوان، يقول الله عنهم: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}[الشورى:39]، مدحهم وأثنى عليهم لأنهم ينتصرون على البغي، على من بغى عليهم، يقول الله تبارك وتعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}[الفتح:29]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ

فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}[المائدة:54]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً}[التوبة:123]، {وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا}[النساء:63]، {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[التوبة:73].

أيها المسلمون!

إذن: إذا استجبنا لله وللرسول منحنا حياة طيبة، وصفها بأنها حياة طيبة مملوءة بذكر الله، مملوءة بمعرفة الله، مملوءة بالخوف من الله ومراقبته، يكون المطعم فيها حلال، والمشرب فيها حلال، ويكون الإنسان فيها مستعداً للآخرة، يعمل لها.

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا *** واعمل لأُخراك كأنك تموت غدا.

فالحياة نوعان: حياة البهائم – ومنها حياة الكفار –، وحياة أهل الإيمان – ومنها حياة الملائكة في السماء –، ولهذا من استقام على دين الله عز وجل أصبح بينه وبين الملائكة قُرب وأُنس؛ تستغفر له الملائكة {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا}[غافر:7]، قال عليه الصلاة والسلام: ((والملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه))، ما دام في مكانه الذي صلى فيه، من أجل الصلاة؛ لأنه صلى وجلس يذكر الله عز وجل، فإنه يصبح بينه وبين الملائكة قُرب، ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون))(1).

أيها الإخوة في الله!

إنها حياة الإيمان {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ}[الأنعام:122] ميتاً بالشرك، ميتاً بالخرافة والبدع، ميتاً بالجهل، ميتاً بالعقائد الفاسدة، والضلالات والشركيات والإلحاد، قلبه ميت؛ فأحييناه بحياة الإيمان ونور الإيمان {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا} علماً {يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}[الأنعام:122] الناسِ التائهين الميتين المظلمين الظالمين الفاسدين، يجعل الله عز وجل له نوراً يمشي به في هؤلاء الناس الذين لا يعرفون هذا النور، الله أكبر! أنت على صلة بالله عز وجل بهذا الإيمان! وأنت حي بين الملايين من البشر الأموات!

قال الله تعالى: {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا}[يس:70]، ويقول على الكفار: {إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى}[النمل:80]، {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[فاطر:22]، هؤلاء أمثالهم أمثال الأموات الذين في القبور، فقبور هؤلاء مدفونة في أجسادهم، فأجسادهم قبور لقلوبهم! فلا يفقهون ولا يعلمون! كما قال تبارك وتعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ}[الفرقان:44].

إخوتي الكرام!

وهذه الحياة تقبل الزيادة وتقبل النقص، كلما نورتها بالإيمان وبالعمل الصالح ازدادت الحياة، وكلما ازداد الإيمان والعمل الصالح ازداد النور، الحياة والنور هما عنصران مهمان في حياة المؤمن، حياة قلبه وروحه وعقله، ونور روحه أيضاً وإشراق عقله {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا}[الأنعام:122]، {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا}إلى قوله: {وَلَكِنْ

---

(1) صحيح البخاري ح(555)، صحيح مسلم ح(632).

جَعَلْنَاهُ نُورًا}[الشورى:52]، فالحياة والنور يجعلان للمؤمن حياة يستعد بها لقبول كلام الله وخطابه وندائه، وحياة يستعد بها لقبول أوامر الله ونواهيه {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [النساء:66]، {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ}[إبراهيم:27]، قال الله ذلك بعد قوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا}[إبراهيم:25]، قال المفسرون هذا مثل ضربه الله للإيمان وكلمة التوحيد، للإيمان في قلب المؤمن؛ فمثله كمثل الشجرة الطيبة وهي شجرة النخل؛ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ثمرةً طيبة ولها ظل وارف، وثبات في الأرض، وشموخ في السماء، تطّلع إلى السماء {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا}[إبراهيم:25]، وهكذا المؤمن؛ أعمال صالحة في اليوم والليلة، وفي السنة والشهر وفي الأسبوع، والعمر كله مشحون مملوء بالأعمال الصالحة؛ من توحيد وعبادة وصيام وذكر وجهاد وإنفاق، وعلم ودعوة وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، وأخلاق حسنة وتعامل طيب، وسعي لعمارة الحياة بما يسعد المسلمين ويحييهم حياة طيبة.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم فاستغفروه.

الخطبة الثانية:

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فلقد عرفنا بأن الحياة حياتان: حياة بدن، وحياة روح، فحياة البدن يشترك فيها المؤمنون والكفار والأنعام، وحياة الروح هذه من خصائص المؤمنين، والمرض نوعان: مرض البدن وهذا يشترك فيه المؤمنون والكفار، ومرض القلب هذا قد يقع فيه بعض المؤمنين المقصرين، وهذا المرض يسمى مرض الشبهة أو مرض الشهوة، أي: قد يكون عند المؤمن شهوة محرمة بأن يشتهي محرماً من المحرمات؛ كالذي يشتهي المال الحرام، أو الزنا أو شرب الخمر أو اللهو واللعب الذي يصده عن ذكر الله، أو الانشغال بالمال والبنين فيصده عن ذكر الله وعن الواجبات التي لله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[المنافقون:9]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ}[الجمعة:9]، فالبيع هو من وسائل حياة الأبدان، وذكر الله من وسائل حياة الأرواح {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ}[الجمعة:9].

ولما أمر سبحانه وتعالى بالتزود بغذاء البدن في قوله: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}[البقرة:197]؛ نبّه على خير الزاد – زاد الروح والقلب والعقل – وهو تقوى الله، ولما نبّه سبحانه وتعالى على ثياب البدن ولباس البدن نبّه على لباس التقوى فقال: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ}[الأعراف: 26] ذكر لباس الأبدان ثم ذكر لباس الإيمان، حتى أن الله سبحانه سمى النساء – زوجاتنا – لباساً؛ لأننا نتستر بهن من عُري الفواحش، وقبائح الفواحش فقال: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ}[البقرة:187] يتستر المؤمن والمؤمنة كل منهما بالآخر من الوقوع في عُري الفواحش، وعُري الجرائم والموبقات والزنا.

أيها الإخوة!

وهذه الحياة التي هي حياة الأرواح، يقول الله سبحانه وتعالى فيها: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[آل عمران:169]، وقال: {وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ} أي: هم أموات، {بَلْ أَحْيَاءٌ}

أي: بل هم أحياء، {وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ}[البقرة:154]، لما بذلوا حياة الأبدان من أجل الله فقطعت أبدانهم، وانتُهكت وأُهلكت في سبيل الله؛ عوَّضهم الله تبارك وتعالى أبداناً أخرى يحيَون بها حياة في البرزخ إلى يوم القيامة، كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل)).(2)

لقد تركْنا هذا الجهاد الذي به حياتنا، وبه عزتنا؛ طمعاً في الحياة الدنيا! فصرنا أمواتاً في صورة أحياء، غثاء كغثاء السيل، ولكننا لو استغاثت امرأة في فلسطين أو امرأة في أفغانستان أو امرأة في الصومال أو العراق لا يقدر هذا الجم الغفير على نصرتها، ولا يفكر في ذلك، ولا يبالي! لأنه قد أقنعته الأمم المتحدة الكافرة الملحدة أنك مسئول عن أبناء وطنك فقط! هذا الوطن الذي اجتزئوه من الوطن الإسلامي الكبير؛ فجعلوا لكل أهل بلدة وطناً يعيشون من أجل هذا الوطن، ولا يفكرون بإخوانهم المسلمين في أوطانهم الأخرى!

أيها الإخوة الكرام! يقول سبحانه وتعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا}[يس:69-70] حيَّ القلب؛ فلا ينتفع بمواعظ القرآن إلا من كان قلبه حياً، يقول تعالى في سورة ق – السورة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب بها أكثر جمعاته؛ لما تضمنته من الوعد والوعيد، ولما فيها من الزواجر –: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} أي: قلب حي، أما القلوب الكثيرة التي تعمر الأبدان فهي موجودة بكثرة! لكن أين القلوب الحية؟! {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[ق:37] وهو شهيد بعقله وقلبه، يحضر الموعظة بجسده وقلبه، فالمطلوب للانتفاع بالموعظة: حضور البدن، وإلقاء السمع، وشهود القلب؛ فينتفع الإنسان عند ذلك بالقرآن.

قال الله تعالى: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ}[الزمر:22] انشرح صدره فدبت الحياة في قلبه، وذهب الموت عن ذلك القلب، وذهبت الغفلة، ودبت الحياة في قلبه فأصبح يبحث عن ما يفيده في دينه ودنياه، يبحث عن العلم النافع، يعمل العمل الصالح، يحي قلبه بنور المعرفة ونور العلم.

جمع الله القلوب في هذه الآية:

يقول تبارك وتعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى} قال المفسرون: (إِذَا تَمَنَّى) إذا تلى على الناس كتاب الله، كما قال الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليله *** وآخره لاقى حمام المقابرِ

وقال تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}[البقرة:78] أي: إلا تلاوةً! لا يفقهون كتابهم، وهذا ذم الله لليهود أنهم يقرءون كتابهم ولا يدرون ما معناه! وللأسف الشديد أن كثيراً من المسلمين اليوم هكذا؛ يقرءون القرآن ولا يدرون ما معناه! يتبركون به ويدرسونه على الأموات! أما نداء الله: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، ولا تفعلوا كذا؛ فلا يسألون عن ذلك، والموازين التي يضعها القرآن والعقائد التي يشرحها القرآن لا يلتفتون إليها!

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} أي: في تلاوته، يلقي في قلوب المستمعين شبهات، {فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} بتكرار العلم النافع وتكرار الحق {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا

---

(2) صحيح مسلم ح(1887).

هُوَ زَاهِقٌ}[الأنبياء:18]، {فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ} يصبح العلم مُحكماً، وهكذا تُلقى كثير من الشبهات! وكثير من الناس يستجيب فقط للشبهات! ولا يبحث عن المحكمات، ولا يبحث عن العلم الثابت الذي يزيل الشبهات.

قال تعالى: {ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} ما يلقيه الشيطان من الشبهات يجعله الله فتنة لمن في قلبه مرض من الشبهة، {وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ} وكذلك أيضاً للذين قست قلوبهم، {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} تخضع له قلوبهم، فهذا قلب المؤمن، ولقد جمع الله القلوب في هذه الآية: القلب المريض، والقلب الميت، والقلب الحي؛ وهو قلب الذين أوتوا العلم والإيمان {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[الحج:52-54].

وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا}[المدثر:31] قال المفسرون: جعل الله في ذكره لعدد خزنة النار خمسَ حِكم وأخبرنا بذلك:

الحكمة الأولى: فتنة للكافرين، فقال بعضهم: تسعة عشر! إذاً نحن سنغلبهم! قال بعضهم: عليّ عشرة وعليكم تسعة!

الحكمة الثانية: {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} لأنهم سيجدون عددهم تسعة عشر في التوراة؛ فيجدون اتفاق العدد في القرآن وفي التوراة فيعلمون أن هذا وحي، وأن محمداً أخذه عن الله عز وجل الذي أوحى إلى موسى.

الحكمة الثالثة: زيادة إيمان المؤمنين {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} لأنهم قالوا: الله أصدق قيلا، وأعلم بخلقه، ونبيه صادق مصدق، وأخبرنا أن عدد خزنة النار تسعة عشر، فما علينا إلا التسليم والرضا والإيمان، وهذه أمور غيبية لا يتوصل إليها بعقل! فلولا الوحي لم ندر بالجنة ولم ندر بالنار، ولا بخزنة الجنة ولا بخزنة النار، ولم ندر بعذاب القبر وبالحساب وبالجزاء، فالله سبحانه وتعالى هو الذي أخبرنا، وهذه عقائد سمعية متلقاة من القرآن والسنة نؤمن بها {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا}.

الحكمة الرابعة: {وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ} أي: أن الله ينفي الرَيب عن المؤمنين وعن أهل الكتاب.

الحكمة الخامسة: قوله تبارك وتعالى: {وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} أي: يزداد الذين كفروا والذين في قلوبهم مرض حيرة وضلالاً.

وهذه الحِكم هي متعلقة بالقرآن، فبعض الناس يكون القرآن له نوراً، وبعض الناس يكون القرآن له – والعياذ بالله — عمى! كما قال تبارك وتعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}[فصلت:44].

أيها الإخوة!

هذه هي القلوب، وهذه هي الحياة، والواجب علينا كما نهتم بصحة أبداننا ونبتعد عن البرد وعن الحر وعن الأجواء الموبوءة، ونحرص كل الحرص أن لا يدخل إلى أنوفنا وأفواهنا شيء من الجراثيم، وكما نحرص كذلك أن لا نقترب من مريض مرَضُه يُعدي؛ فكذلك يجب علينا أن نهتم بقلوبنا وأرواحنا، ويجب أن نعتني بغذاء الأرواح ودوائها، وأن نبتعد عن المرضى

الذين فيهم مرض الشهوات أو الشبهات حتى لا يعدوننا بأمراضهم، وأن نجالس الصالحين، فالجليس الصالح كحامل المسك، والجليس السيء كنافخ الكير، فاتقوا الله عباد الله! ((المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل))(3)، قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}[الصافات:22] أي: احشروا الظالمين وأشباههم وأخلاءهم وأصدقاءهم وأعوانهم إلى جهنم، فالظالمون والمجرمون يحشرون إلى جهنم ويحشر معهم أشباههم ونظرائهم ومحبوهم وأخلاؤهم {الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ}[الزخرف:67].

بارك الله لي ولكم بالقرآن العظيم، ونفعني وإياكم بالآيات والذكر الحكيم، وثبتني وإياكم على الصراط المستقيم، وأجارني وإياكم من عذابه الأليم.

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تحيي قلوبنا بذكرك، أن تحيي قلوبنا بالمعرفة والإيمان، أن تحيي قلوبنا بمعرفتك وذكرك، اللهم أحيي قلوبنا بكتابك وسنة نبيك، اللهم حسّن أخلاقنا وأعمالنا وسلوكنا بتعليمات كتابك وسنة نبيك، اللهم اشرح صدرونا للإيمان، اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق والأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيء الأخلاق والأعمال لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، اللهم زدنا هدى وتقى وإيمانا، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك.

---

(3) سنن الترمذي ح(2378)، سنن أبي داود ح(4833). قال الحافظ العراقي: "أخرجه أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَحسنه وَالْحَاكِم من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَقَالَ: صَحِيح إِن شَاءَ الله" تخريج أحاديث الإحياء = المغني عن حمل الأسفار (ص: 626).